

انشودة الرفض والعشق والموقف

عبد الرحمن عما دي

ايحائيا قويا ورائعا . ومن هذه البدائية يستمد انطلاقته الفنية . ورؤيته الجمالية . فحيثما كانت القرية كان الجمال . ان في المنفى . او في الوطن ، فسلكين (٢) هي عنده جمالية مماثلة لجمالية ترشيحا ، وكل ما فيها طيب ورائع :

« اقرأ في عينيك الصافيتين

صفاء القرية

أشجار الزيتون المستقبلية

ضيوف الله بوجه باش

ضحكات العصفور الابيض

من أسلم حبا وكرامة

لرياح الآفاق زوده » .

وتعامله مع الآخرين تعامل فلاح لا يعرف الا الصدق الجريء . والصراحة المطلقة :

« من خلل الدمع أصافحك

أغصان العشق القروي » .

لهذا نحس دائما بحنينه العارم الى قريته في الوطن المحتل ، نحس بحرارة بكائه عليها ، واحصائه المواقف عليها ، وتكريسه غزلا عارما يتناسب مع العشق الذي يحمله في قلبه لها ، وليس هو الفلاح الذي أجبر على النفي منها الى أفواه المدن :

« أحبك يا قرّة العين

في عروق الطبيعة

نسفا

يبرعم موت الفصول

طريقا يدق عليها الزمان خطاه

فتعطي المسافات سحرا

يفتح صدر السواقي » .

تقف عند حدود معاناتك اليومية ضمن تضاريس الهموم . فتحمل فأسك تنبش به تربة قهرك وأحزانك . وتتسلح بما جمعت من آلام باحثا عن يناييعها، تستشرف في كل ذلك نبعا آخر ، للفرح ضمن طبقات الرفض والثورة .

تتعب فتدعو الآخرين الى مشاركتك في بحثك هذا متشفعا بجراحك وجراح الوطن . . . ولكنك تعجز عندما توغل في وطن الكلمات ، وفجأة تعرف ان هناك دعوة أطلقها احدهم كما أطلقت، فأجاد بدعوته ، ولا تستغرب، لان ذلك كانت دعوته متلفعة برداء الشعر ، بل تستشعر راحة ورضاء لان هذا الشاعر كان لسان حالك حيث قصدت ، وتلك مزية الشعر . تستشعر راحة هي تماما كالراحة والرضاء اللتين نحسهما ، ونحن نقرأ الديوان الجديد للشاعر الفلسطيني محمود علي السعيد . والمعنون ب « شمس جديدة في ترشيحا » (١) .

ان القارئ لديوان الشاعر يخرج بنتيجة أوحاها له العنوان في البدء ، هي ان الشاعر في أشعاره يعود الى جذوره القروية في ترشيحا ، القرية التي هاجر منها صغيرا . ولكنها طبعته فلاحا ، فكتب الشعر ضمن نطاق القرية ، ورؤيته لها ، بعيدا عن زيف المدن وتلوناتها . فعلى الرغم من سنوات النفي الطويلة عن ترشيحا ، رمز القرية الفلسطينية . لا زالت ترتسم أمام عينيه بمشاهدها الريفية الطيبة . وفلاحيتها ، وترابها :

« وطيور البرق تدق على القرية

أبواب الصمت

تتقرى في وجه المحراث الخشبي

غصونا

تثقلها فاكهة الحطب الريفي

فترق رياح الصيف نداء

والمنجل في الصدر معلق » .

هو « فلاح » اذن ، قروي بطبعه . من بدائيته الريفية يخلق عالاه الشمري ، فيعطي أشعاره رونقا

(١) منشورات اتحاد الكتاب العرب - دمشق - أواخر ١٩٧٨ ، وترشيحا قرية الشاعر في فلسطين .

(٢) سلقين : قرية من أعمال محافظة أدلب في سورية .

وعنده ان جيل الفقراء وحده هو الذي يشعل وقود
الثورة . وينطلق بنا مدمرا مرابا الصمت الاسود ، ولهذا
الجيل يعطي نبوءته المستقبلية عن الزمن الطيب ، الزمن
المدتمى بتضحيات المسحوقين ، والايتماء المردين :

« فتشب من الاقطة الفقراء

كل الاطفال الفقراء

بروقا

تسعل في وجدان اليقظة شبك الرفض » .

هذا الايمان الاعمى بالمستقبلية المنيرة للطبقة
الكادحة ، يضعه الشاعر مستندا الى رؤيا واضحة .
فالزمن الحاضر بما يحمله من تفاعلات وأحلام ترتبط
بالزمن الآتي ، وصبر هذه الطبقة مؤشرات رائعة لنبوءته:

« يا وطني

فقراء نحن ونملك كل سلاح الفقراء

انومت وأحلام الآتي

الوقت وأحلام الآتي » .

كيف اذن تبعد هذه الطبقة عن ساحة الوطن ؟
كيف تنفى عن المواقع التي يجب أن تكون لها ، وهي
وحدها المعنية بما يجري ؟ اوليست الشعارات تطرح
باسمها ، والمزادات تمارس عليها ؟ أضف ان الخلاص
لن يكون الا عن طريقها :

« فلماذا يا وطن العشق ناوا

فقراء الارض عن الميدان ؟ » .

بل اننا نلمح وعيا سياسيا في تعامله مع فقرائه :
فيما ان كل شيء ضدهم في هذا الزمن الكالنج ، فيجب
أن تتحد صفوفهم كي يثبتوا وجودهم الحقيقي على
الساحة ، لهذا لا بد أن يتحدوا :

« الرفض أن تقف الفصول

حديقة

يتعانق الفقراء فيها » .

ولا بد من هذا التعانق للاسراع بالخلاص ، فالواقع
في سوداوية قاتمة جدا ، فها هي الاعوام تمر على
الوطن ، ولا زالت الامور كما كانت في سلبياتها ومرارتها،
والجماهير تجتر أحلامها بكسل وتراخ ، تخشى من كل
خطوة تسير بها الى اليقظة ، ولهذا يعلن الشاعر الادانة :

« ومر العام اثر العام يا زندا

ولا زلنا

وقوفا في نقاط الفياء

نستاف الرؤى المرة

ونلنن ضربة الجداف » .

وكل شيء متداخل ، حتى ان الشاعر يعلن بمرارة
حيرته من ضياع الخيط الاسود في الخيط الابيض
بغروب هذا الوطن ، فالنفط العربي سلاح بيد الاعداء
يضر بوننا به ، والمزاودات على شعارات الحرب تطرح ،

تري . اهي الرومانسية التي تطالعنا لدى بعض
الشعراء معبرة عن حنينهم وشوقهم الى رسم عالم خاص
مناقض للواقع بين أحضان الطبيعة ؟ أياكون محمود علي
السعيد هو الشاعر الذي عقدته المدينة ففر الى القرية
الرومانسية ينشد فيها عالما خاصا مريحا ؟!

والجواب ياتي بالنفي . والشاعر في ديوانه الجديد
لا يفر الى القرية والطبيعة ، لانه اساس من القرية ،
بل هو الحنين اليها ، حنين يشوبه احساس مر بالضياع
بين انياب المدن في غربة قاتلة ، أضف انه في قرويته
هذه يكرس موقفا جريئا كشاعر فلسطيني معترب يحمل
قضية هجرته حيثما رحل :

« ترشيحا

ماذا يا غالية العينين عن الغربة

وزمان الهجران يطول

عن أحلام النهر الراقق

يرسم في عين الاطفال

قباب الافراح » .

المهم ان الشاعر في تعامله مع الاشياء والآخرين
والقضية ينطلق من البداية الفلاحية الجريئة ، فيكرس
لنا شاعرا مفتقدا ، أو موجودا على حياء في الساحة
الادبية ، فهو لا يعرف المجاملة أو التلون أو تزييف
الامور ، ومن هذا المنطلق بالذات يستمد قوة الكشف
التي تندر الا عند من بقي متمتعا بالنظرة الطفولية ، فهو
ضليع بدقائق الامور ، ومن ضلوعته هذه ، ومن معرفته
التامة للحقائق ، يرسم وعيا صادقا لتضحيته بالذات في
سبيل الارض والبراءة والقضية :

« لاني وقفت أمام الحقيقة

لاني عرفت بأن القتل

يصدر للطير قمح البراءة

أكون هواء نميرا

يعبى صدر الطبيعة

أكون أمام عيون الصغار

مقصا يقلم ظفر الضواري

اذا مار فيها دم الافتراس » .

انها ثورية واضحة تتمتع بالحرارة والقوة ، ولكنها
ليست ثورية منجرفة ، انها ثورية واعية ، تعرف على
ماذا تستند ، ومتى وكيف تنطلق . انها تنطلق من
صفوف الفقراء المسحوقين ، ومن المنبوذين المضطهدين،
تتخذ دعمها واشراقتها ، فالشاعر يؤمن بالثورة التي
يشكل الفقراء وقودها ، الفقراء الذين ينتمي الشاعر
اليهم ، ويعلن انتماءه هذا بكل فخر :

« الفقراء هم الفقراء رفاقي

وأنا أطلق في الوديان

رصاص الماء » .

وصفقات الاستسلام تعقد ، ومن بين هذه وتلك تمزق
موجع للشاعر الذي يراقب كل ذلك ويعلن :

« ما عدت أفرق في الانبوبة
بين ضمير البترول المتدفق حرا
وضمير الماء المفقود
بين طقوس السلم
وبين طقوس الحرب
ما عدت أفرق يا وطني » .

انه وطن « غريب » حقا ، فكل شيء فيه يجري
عكس ما يجب أن يكون ، فالقاتل يرتع حرا ، ويبرأ
بسهولة ، والمقتول يبدان ويجلد !! ناهيك ان جثث
الشهداء ، والايتم ، والدموع و ... كلها اشارات
للقهر :

« القهر يخالط في مجرى العينين الدمعة
يا وطني » .
« ولماذا المقتول ظلما
وبقاع الدم شهود عيان
يجلد يا وطني ؟ » .

أضف غربة الشاعر في منفاه ، وبعده عن وطنه
فلسطين ، عن قريته ترشيحا . . ذكرياته عنها ، طفولته
المفقودة فيها ، كل ذلك يفجر فيه احساسا متناميا
بالقهر والغربة ، بحيث تعبق من مجمل قصائده رائحة
التشرد وآلام النفي :

« أنا في الريح والامطار
يا وجه الذي يأتي
سؤال جنحته الريح فانجست
ظلال القهر من عينيه
تروي قصة الغربة » .

ومن هنا أيضا كان احساسه الجارف بالضيق ،
فنبو في لحظات وصوله الى قمة انفعالاته يهيم في
الطرق ، يبحث عن شيء افتقده . . ويبحث ، فسنأل:
أترأه يبحث عن الاستقرار النفسي ، أم الجسدي ،

« أتفرس في وجه المارة
أبحث بالرشم المكسور عن الوجه
الضيعة ولم الق » .

ولكن ما نلبث ان نقرب من الجواب عندما تطالعنا
حسرة الشاعر القوية على وطنه فلسطين ، الوطن
المسروق الذي يحنّ الشاعر اليه ويتمنى لو انه يعود
الى أحضانه مرة أخرى بعد أن يتخلص من أسر تشرده
وغربته :

« يا وطن الطرق المسدودة في وجه الخطوات
يا وطن المنجل والحطاب
انتظر على مفترق الغربة خابية
يطفح منها العشق القروي » .

نعم ، أنه أحساس قوي بالغربة ، يعيشه الشاعر
بشكل متواصل في كل مكان ، ويتنامى في داخله باطراد
طالما هو بعيد عن وطنه فلسطين ، ولنستمع الى هذه
الصرخة المتأللة التي تجسد مرارة اغترابه :

« غريب أنا يا نشامى المدينة
غريب أنا في خسوف القمر » .

بل تمر عليه لحظات يحسّ فيها بالانهيار الكامل
والعجز التام أمام السوادوية التي تحيط به ، والتي
تسهم الغربة في ألوان قتامتها :

« يورق الماء ضحايا
في ضمير الشجرة
وأنا خلف جدار الليل قنديل مهشم
وبقايا مقبرة » .

أضف ان كل شيء في هذه الغربة منداخل ،
فالشعارات على الساحة تطرح . والمزادات تعلن ،
والاضطهاد يمارس ، ودموع الاطفال ، جثث الشهداء . .
والشاعر يرقب ويئن حتى مرحلة الانهيار :

« ما عدت أفرق يا وطني
ما بين النقطة مثقلة بشمار المعنى
ترشح من كلمات البرق ثقابا
يفضح تقرير الارض الواشي
والنقطة في صدر الطلقة » .

ولكن هل يكون انهياره كاملا وأبديا وهو يصور
الحقيقة السوداء !!

أما من خيط للتفاؤل في كبة التشاؤم المعقدة
والتي كشف الشاعر عن خيوطها ملتفة على أسطوانة
الواقع ؟ اننا نريد من الشاعر دائما ان يعطينا ضوءا ينير
لنا الخلاص ، ولا نصفح له أن يسقط للنهاية ، فمهمة
الشاعر لا تنتهي عند حدود الكشف ، بل تستمر حتى
عمق الخلاص . وفعلا ، هذا ما نراه عند محمود علي
السعيد . فلئن كانت عملية الكشف لديه قد اظهرت
ركاما من التناقضات ، فان هذه العملية ذاتها أعطتنا
طرفا آخر مشرقا يحمل بذورا طيبة للنمو المثمر في
حدائقنا الآتية ، ويبدو هذا الجانب في اشعاعيتين :
الاولى في ذوبانه الكامل والتام في قضايا الوطن ،
وانسفاحه على معبده بأريحية وتضحية رائعتين ، فهو
في معظم أشعاره يذوب بكل محبة في الآخرين ،
ويضحى بنفسه من أجل الطفولة خاصة ، لانه فيها
يستقرىء ملامح جيل تنهزم الهزيمة على يديه :

« أكون أمام عيون الصغار
مقصا يقلم ظفر الصواري
إذا مار فيها دم الافتراس »

ويعلن نفسه قربانا رخيصة للوطن بكل جهاته ، فهو
مستعد للاحتراق في سبيل انارة دروب هذا الوطن ،

فهو من ثرابسه . ومعاناته وآلامه . وأفراحه كلها
يستقيها منه :

« أنا الاوراق يا وطني
إذا البرد ادلهم عليك
أنا الوصل الذي نسجت عقاربه
دم الساعات » .

ولا عجب . فحبه للوطن أكبر من أن يتجسد
بالكلمات والتعابير . وهو حب عذري مجاني لا يطلب
الشاعر مقابلا له ؛ فالغاية تتحدد بالحب والتضحية
فقط . ودون المطالبة بشيء . وهذا يأتي في أعلى درجات
العطاء :

« وحسبي اني
ومن فرط حبي
مع الريح والليل والبرد
طرقت عليك » .

أما الأشعاع الثانية المتفائلة . فهي الرفض .
الرفض الذي يكمن فيه مفتاح الخلاص من جميع
التراكمات والسلبيات . الرفض الذي يحمل في طياته
أسلحة العودة للوطن المحتل ، وأن ترفض الجماهير ،
فذلك يعني أنها قد رسمت لنفسها دربا للراحة
المنشودة :

« الرفض ضفاف تورق فيها البذرة سوما
قبل مجيء الماء
الرفض شهادة أن لا ملجأ الا الرفض » .

ومع ان الرفض طريق شاق وصعب ، الا انه
الطريق الوحيد ، فالواقع والتجربة قد أثبتنا ان لا خلاص
يأتي بدون الرفض ، أما المراوغة والمهادنة والكلمات
المعسولة ، فكلها أمور لا تأتي بنتيجة ، والقول الفصل
في هذا الزمن للأقوى ، والأقوى من يبدأ بالرفض :

« في عصر الغابة قولان
أن تقتل غيرك أو تقتل
تتلمس دربك في الماضي
في المستقبل » .

أضف ان الشاعر بعد كل شيء ممتلئ بالتفاؤل .
صحيح انه يقف على أرضية كالحية في وطن الردة ،
ولكنه كما رأينا يتطلع الى الفقراء والرفض كأساسين
للخلاص ، ومن هنا يستمد معنى مقاومته ، فلئن كانت
الطعنات توجه لجسد هذه الأرض ، والافاعي تلدغهما
من جميع الجهات ، فالعشق لا يزال يحتفظ بنكهته في
هذا الوطن ، وللنور اشعاع كبير سينفذ بلا شك لينير
كل مكان :

« غير ان الرفض في الطرق
التي طالت
فصفت للمحطات البعيدة عاشق
وخطا .. وقبّل » .

هذه هي بعض جوانب ديوان الشاعر محمود علي
السعيد . حيث ظهر لنا شاعرا متميزا من شعراء المقاومة
الفلسطينية . حيث ترتبط القضية لديه بالبعد الانساني .
ثم بالبعد العربي ، حتى توصله الى فلسطين . والى
فريته ترشيحا التي جندها حنيننا وتفاؤلا وعشقا
لا يحد .

هذا من ناحية المضمون الذي لم اتطرق الا الى
بعض جوانبه . منوها الى ان كشف عالم هذا الشاعر
في ديوانه يحتاج الى أكثر من وقفة تعطي هذا المضمون
حقه . ولنا أن نتقل الى بعض جوانب الشكل .

نلاحظ ان الشاعر في تعامله الشعري يلجأ الى
عملية التتابع المتواصل في الصور الشعرية التي يوظفها
بمهارة لصالح معاناته . موضوع القصيدة . مما يجعل
الغاريء ينتقل من صورة الى اخرى بدون توقف ، جاعلا
أياه يعيش في عالم شعري ، موصلا إياه في النهاية الى
الغاية التي يقصدها ضمن عملية اقناع نفسية وشعورية
.. وكمثال سأورد هذا المقطع . حيث يمكننا أن نلاحظ
فيه مدى التتابع في الصور الشعرية :

« أشد على الريح
في قبضة الريح
اركض معها
لعل المسالك يوما تلاقي
حبيبين في الصحو
غصنا وظلا

إذا الغصن أرخى العنان
تمطى الحبيبان طولاً
وان يقصر الظل فالغصن يعطي ، عصا الطاعة
العمر
عمرًا .. ووصلا » .

لاحظوا الربط الكثيف بين الصور ، فمن عملية
الشد على الريح . انتقال الى صورة الحبيبين بهيئة
الغصن والظل ، الى تحولات الغصن المرتبطة بتحويلات
الحبيبين في الصورة الاولى ، الى تحولات أخرى لنفس
الغصن ترتبط بالعمر وبالوصل . ولنحكم على مدى
الروعة التي احسنها في انتقالنا بين هذه الصور
المرتبطة مع بعضها بشكل جميل ، اضافة الى اننا
نكتشف مجهرية عين الفنان هنا لدقائق الاشياء .
وتوظيف هذه الدقائق لصالح الصورة المحببة : « الظل ..
الغصن .. العصا .. الخ » .

هذا الاكثار من الصور يلجىء الشاعر الى الاعتماد
بغزارة على التشبيهات التمثيلية وتطويعها ، بحيث يمكن
لها أن تخلق احساسا بالمتعة الشعرية ، وحثا على
المشاركة الوجدانية بانفعالات وهموم الفنان . ثم يعمد
الى وضع هذه الصور كلها في لوحة واحدة هي بمجملها

نلاحظ اثاره الواعي هنا من القطع ، لان الموقف المتأجج والحماس المتدفق يتطلب ذلك ، ولو أحصينا القطع أيضا لوجدنا : يشدها : الدال . ترفض : الراء المشددة - الضاد . الجذور : اللام المدغومة باللام .. الخ . المأخذ المبدئي الذي يمكن أن نأخذه على الشاعر هو عدم اكرثائه بعلامات الترقيم وأهميتها في الشكل الشعري ، أو اهماله لها . مما أفقد بعض هذه القصائد قسما من الايحاء المفترض فيها . ولا سيما في قصيدة « أبحث بالرمش المكسور » ، مثلا ، يقول :

« .. ومع الساعات المحكوم عليها بالاعدام
تتقن لفة الاشياء على احسن وجه
حسنا
وبدات مسيرتي الاخرى عبر الايام
في أي المنعطفات تسربت البارحة
عن العينين
وكمثل عجوز يتقن سر المهنة .. » .

فالمقطع جزء من حوار ثلاثي بين الشاعر وصديقه وذات الشعر ، يبدأ ب (قال صديقي) ، في حين أن (حسنا) هي على لسان الشاعر ، و (في أي المنعطفات ..) سؤال جديد من الصديق ، وهكذا ..
فأين هي علامات الترقيم التي كان من الممكن ان لا تفقد هذه القصيدة جانبها كبيرا من روعتها ؟
بالنتيجة :

ان محمود علي السعيد ، يتكسر في ديوانه الثاني « شمس جديدة في ترشيحا » ، شاعرا متقدما من اصواتنا الشعرية في الوطن العربي بشكل عام ، وفي شعر القضية الفلسطينية بشكل خاص .

القاسملي - سوريا

صورة جديدة . وصوره ، بطبيعة الحال ، صور مبسطة محبة ، تستمد عناصرها من الامور القريبة منا ، ومن الاشياء البسيطة المعاشة دائما : « الارض .. القضية .. القرية .. القرية .. الريح .. » .

القارئ تجذبه الى الديوان ايضا الموسيقى الشعرية التي توفرت في مجمل القصائد ، وربما كان ذلك مرده الى اعتماد الشاعر نظام التفعيلة ، ولا سيما تفعيلة (المتقارب ، فعولن) التي تتميز بأنها تعطي جرسا موسيقيا وافرا ، ملائمة اغلب الانفعالات الانسانية .

نلاحظ في الديوان ان الشاعر كان واعيا لعملية توظيف (المدّ والقطع) لصالح ايحائية القصيدة ، ففي حين كثرت المدود بشكل وافر ، قلّ القطع بشكل ملحوظ ، وهذا يعود الى الدفقات الهادئة الواعية التي أطلقها الشاعر أولا ، وليلائم دقاته الشعرية مع حالات الحزن والقرية والقهر التي يعيشها ثانيا ، مما يفسر لنا سر الاكثار من المدود . مثلا ، لو حاولنا أن نحصى المدود الموجودة في مقطع ما سنجد :

« أقول عيونها

الساعات والارض الصبية والذي يأتي » .

فالمدود الموجودة هنا هي : اقول : الواو - الاشباع على اللام . عيونها : الياء - الواو - الهاء - الالف . الساعات : الالف - الالف - التاء المشبعة . الارض : الراء المسكنة بعد خفي - الضم على الضاد .. الخ ... ولكنه من جهة اخرى وظف القطع لصالح المواقف الشعرية التي تتطلب القوة والحزم ، مثلا :

« يشدها ، يشدها

وترفض الجذور

تفارق القديم من خلاها

اضمامة الدقائق الميئة الشفاه » .

صدر حديثا :

الطريق الى الخيمة الاخرى

دراسة في اعمال غسان كنفاني

تأليف الدكتورة رضوى عاشور

دار الآداب